٧. حديث مع غلوب باشا ..

قضيتُ عشيةَ السفر من بغداد وأنا أُعدّ أمتعتي وأحرّر الرسائل الى الولايات المتحدة . وإذ كنتُ لا أعرف على وجه التحقيق المواطن التي سيُجاز لي زيارتها ولا المواقيت التي سأزورها فيها فقد اخترتُ فندق فيلاديلفيا في عمان قاعدةً لي وعنواناً .

وينبغي ان نلاحظ ان فندق فيلاديلفيا هذا لم يسمَّ على اسم المدينة الاميركية ، ولكن على اللقب القديم لمدينة عمان . ففي عصر السلوقيين الذين خلفوا الاسكندر حكم بطليموس فيلاديلفوس هذه الديار ، وصارت عمان تعرف بفيلاديلفيا . اما في الاصل فكانت عمان تدعى « ربة عمون » ،وذلك عندما سكنها المؤابيون أول ما سكنوها حوالى عام ١٣٠٠ ق.م.

وفي الميقات المحدّد وصلتُ وحقائبي الكثيرة الى ساحة وزارة الدفاع حيث التقيت ؛ صديقيّ العقيد مكي والزعيم عبد المطلب بك . ولم يكادا يلقيان نظرةً على حقائبي حتى هالتهما كثرتها ، ولكنهما اخفيا ذعرهما ولم يقولا شيئاً .

ثم ان العقيد مكي مضى ، تاركاً اياي مع الزعيم عبد المطلب و« اقدس » الفتاة الصحفية التي شقت طريقها عبر القافلة العسكرية

الى ساحة الوزارة . وكانت اقدس ، في ما يبدو ، راغبة في ان تمضي الى الجبهة ايضاً لتزوّد صحيفتها بأنبائها ، ولكنها لم تلقَ تشجيعاً من الزعيم .

وبعد قليل رجع العقيد مكي في سيارة شيفروليه جديدة من نوع « ستايشن واغون » ، وألحّ عليّ في الدخول . وترجّل السائق ، وهو عربيّ اشتر مكشّر عن اسنانه ، فحمل حقائبي واخذ يكدّسها جميعاً ، حتى آلتي التصوير ، على الرف . فما كان مني الا ان انقذت هاتين الآلتين في حين بقيت الآلة الكاتبة في موضعها مع سائر الامتعة . ومن ذلك الحين لم تعد تلك الآلة ما كانت من قبل . وتبعني العقيد مكي ، وهو رجلٌ رقيق قوي البنية بالغ النشاط ، فجلس الى جانبي في المقعد الخلفي . اما في المقعد الامامي فجلس السائق وضابط من سلاح المشاة برتبة نقيب . وكان هذا الضابط لا يتكلم غير العربية وبضع عبارات انكليزية ، وكان ينفق معظم الوقت ، خلال رحلة الخمسمئة ميل ، وعيناه محدّقتان الى الطريق .

واخيراً ، وبعد ساعة انقضت على وصولي الى الوزارة ، تهيأت القافلة للمسير .. فهرع الزعيم عبد المطلب بك ، وسط الحشود ، وصافحني متمنياً لي رحلة طيبة وصيداً سميناً . ولوّحت لي أقدس وهي في ثياب الترحّل الانيقة وقد بللت الدموع خديها ، مودعةً إياي في حرارة . ودوّت الصافرات ، وهدرت الموتورات ، وصدحت الابواق وسط مجموعة متشابكة من الايعازات العسكرية ، وانطلقت بنا القافلة . والى الامام ، كان في

ميسوري ان ارى خطاً افعوانياً طويلاً من السيارات الحاكيّة ينعطف ، مجتازاً الحرس الرافعين أيديهم بالتحية العسكرية ، نحو الطريق المؤدية الى الجنوب . وخلفنا كان خطّ من ناقلات الجند ، وكانوا مبتسمين هاتفين يلوحون بأيديهم في حماسة بالغة . وكان بعضهم قد وضع فوق آذانه وروداً أو أزهاراً أخرى . وكان الموكب بهيجاً مرحاً .

ولسوء طالع الجند كانت الطريق الى الجنوب غير آهلة بالسكان نسبياً . ومن هنا لم يلوّح لنا فيما انطلقت بنا السيارات بسرعة اربعين ميلاً في الساعة غير نفر من الاطفال الصغار وسائقي الحمير . وعبرنا الفرات ، جنوبي الرمادي ، واجتزنا مطار الحبانية البريطاني ، ثم انطلقنا عبر الصحراء الى الرطبة حيث قال العقيد مكي اننا سنبيت تلك الليلة .

وكان الجنود الذين تقلّهم القافلة العسكرية قاصدين الى الخطوط العراقية ليحلوا محلّ بعض الكتائب التي انقضت عدة أشهر على عملها في الجبهة أو ليعززوا بعضها الآخر في المواطن التي اشتدّ فيها الضغط الصهيوني . وكانت معظم السيارات شاحناتٍ كبيرة ، ولم يكن أيٌّ منها مسلحاً . وحين سألت العقيد مكي عن ذلك هز كتفيه وقال انه لا يرى ما يوجب التزام حالة الاستعداد ما دامت القافلة لا تزال في الاراضي العراقية . حتى اذا بلغنا شرقي الاردن وفلسطين وعلمنا ان العدو يقوم بنشاط جوي فعندئذ نسارع الى وضع المدفعية المضادة للطائرات على قدم الاستعداد . ولكن العقيد كان يتوقع ان تكون الرحلة آمنةً مطمئنة .

وكنا قد اجتزنا الفرات حوالى الظهر ، وغدت الرحلة عبر الصحراء رتيبة مملة. وكانت الصحراء موحشة كثيرة الغبار لا تقع العين فيها، وفي احوال نادرة، الا على قرية بعد قرية قائمة قرب ينبوع او واحة. وكانت الشمس حارة والنهار بالغ الجفاف ، وكانت ريحٌ باردة تهب من الشمال فتعبث باوراق النبات وبالغبار وتديرها في سرعة بالغة فوق شريط الطريق الاسود . وكان ثمة خوفٌ من ان تهب علينا ، عما قليل ، عاصفة رملية ، ولكن ذلك الخوف ما لبث ان تلاشى بعد ان تقضّت ساعات الاصيل وئيدةً مثقلةً الخطى . وكنت قد عرفت العواصف الرملية في بغـــداد ، وشاركتُ جمهور الناس في كرهها . لقد كانت ، في العادة ، مقدماتٍ تمهد ليوم او يومين من ايام المطر ، ولكنها كانت في ذات نفسها مجلبةً لاشد الانزعاج . انهـا تنطلق سحباً كبيرة داكنة من الصحراء ، فتستغرق بغداد وكأنها بطانية ضخمة ذات مسام ، تنفذ الى كل شيء .

وكنت اسارع الى آلتي التصوير ، عند اول انذار باقتراب العاصفة الرملية ، فألفّها بالبطانيات لفاً محكماً ثم اضعها في حقيبة خشبية صنعها لي نجار «السيلفرستار» ، واحيط هذه الحقيبة بأوراق الصحف وما اليها خوفَ الهباء الذي يوشك ان يغشى سماء بغداد ، ويبعث في ارجائها رائحة تخيّل للناس وكأن مكنسة هائلة من مكانس السجاد قد افرغت احمالها فوق رؤوسهم . ليس هـــذا فحسب ، بل ان العاصفة الرملية من شأنها ، بعد ان يعقبها المطر ، ان تجعل الطرق زلقة شديدة الخطر ، وارصفة الشوارع غير صالحة

للسير حتى يعاودها المطر فينظفها من جديد .

ولكن أسوأ ما في العاصفة الرملية رائحتها . واذكر ان بعض العواصف الرملية كانت تسد منافذ الافق حتى ليتعذر علي ان اتبيّن نهر دجلة ، وليس يفصله عن نافـــذتي غير عشرين من الياردات . امـــا رائحة الغبار فكانت تنفذ الى الهواء والطعام بـــل الى الجعة ايضاً حتى ليستشعر المرء ان النظافة تعوزه . ولم يكن في تذكُّر المرء أن العواصف الرمليـــة كانت النتيجة الأخيرة لتدمير المغول نظامَ الريّ وبذلك خرّبت الصحراء المتجاوزة حدودها موارد الغذاء في البلاد بل أتلفت المناخ أيضاً — اقول لم يكن في تذكُّر ذلك ما يخفف كثيراً من وطأة البلاء . وعندي أنه لو قُدِّر للقنوات والسدود القديمـــة أن تُنشأ من جديد اذن لتطور مناخ بغداد وغـدا اكثر اعتدالاً ، واذن لكان من الجائز أن تختفي العواصف الرملية أيضاً .

وفي الطريق الى الرطبة تضاءلت امكانيـــة هبوب العاصفة ، ولكن قوة الريح بدت وكأنها تتعاظم فيما أخذت الطريق ترتفع ارتفاعاً تدريجياً بطيئـاً . ذلك بأن بادية الشام تنهض فوق سطح البحر ، وحـــين تؤذن الشمس بالمغيب مصحوبةً بريح هابّةٍ من الشمال تهبط الحرارة هبوطاً كبيراً . حتى اذا اقتربنا من الرطبة لاحظتُ أن الاشجار المشتتة ههنـــا وههناك كانت منحنيةً نحو الجنوب تحت ضغطٍ من ريح الشمال ما ينقطع . وكانت المنـازل دانية السقوف ، منفتحةً على الناحية الجنوبية ، وكانت الأنوار لا تبدو إلا من وراء نوافذها وأبوابها الموصدة . ولم تَعُدِ الكلاب

والدجاج تعدو في محاذاة الطريق المعبدة ، مؤثرةً ان تظل قريبةً من بيوت السكان الاكثر دفئاً..

وقلعة الرطبة ، التي عاقت تقدم القوات الاردنية عدة أيام أثناء ثورة رشيد عالي ، محوطة بمجموعة من الثكنات . وواصلت القافلة سبيلها فيما انعطفنا نحن حول الطريق واجتزنا بسلسلة من مراكز الضباط القائمة قرب حديقة صغيرة ولكنها موحشة . وكانت الريح عنيفة قاسية حاملةً ذرات قارسة من الرمل . ولقد وجبت بنصيحة العقيد مكي حين أوعز اليّ بأن اجتنب التعرض للريح فيما كان السائق يخرج حقائبي من السيارة . وكان النقيب الذي يرافقنا قد اختفى في الحال ، ليعود بعد دقائق قليلة فيصحبني الى حيث اقابل قائد الموقع ورجاله . وكانوا جميعاً لطفاء جداً . وكانوا مجموعة من المقاتلين الاشداء الذين ضرّستهم الصحراء ، وكانوا يتكلمون قليلاً من الانكليزية او الفرنسية او الالمانية يُردفون به عربيتهم ، وكان العقيد مكي يترجم لي كلامهم الى لغته الالمانية التي كان يعسر عليّ فهمها في بعض الاحيان بقدر ما يتعذر عليّ فهم لسانه الوطني .

ولكنهم رحبوا بي ، وافردوا لي وللعقيد مكي مبيتاً في غرفة مربعة مطلية بالكلس يبلغ طولها نحواً من عشرين قدماً وعرضها نحواً من خمسة عشر . وكانت لتلك الغرفة نافذة شمالية زوّدت بوقاء من الريح تعوزه الفعالية فكان الغبار ينفذ من خلاله بين الفينة والفينة فيما تعبث العاصفة بزجاج النافذة .

وكان في الغرفة سريران عاريان ، فلا فرش ولا بطانيات ،

ولكنْ مجرد غطاءين ليس غير . ولم اكد ارى الى ذلـــك حتى ايقنت انه كان يتعين عليّ ان احمـــل ، الى جانب آلتي التصوير والآلة الكاتبة ، فراشاً يستريح جنبي اليه ! ولكن الضابط الذي رافقنا في هذه الرحلة ما لبث ان برز حاملاً بعض البسط النظيفة ونشرها فوق السرير العاري . وبعـــد لحظة اقبلت البطانيات (ولعلها انتزعت من فرش الضباط العراقيين المرتجفي الاوصال)، ووقفت في وسط الغرفة وأنا اتنفس انفاساً منظـــورة وارنو الى الميزان لأرى اين استقرّ الزئبق فيه . وفي الخارج ، كان البرد قاسياً ، والظلام دامساً ، وكانت الريح تعوي حول زوايا الابنية . وكان ازعج شيء لديّ ان افكر في ضرورة الخروج من ملابسي الدافئة لاحشر نفسي في ذلك السرير الذي يذكّر المرء بالقطب الشمالي .

وفي هذه اللحظة اقبل الجيش العراقي لنجدتي. فاذا بباب غرفتي بعض الجنود يحملون كوانين فولاذية ضحلة ذات قوائم يبلـــغ ارتفاعها نحواً من ثمانية عشر إنشاً، مثقلة بركام من اغصان الصفصاف . ثم انهم أضرموا النار فيها ووقفوا حولها ، مستشعرين شيئاً من الحسد ، باسطين ايديهم الى الدفء الذي بدا وكأنما يُهدر في هواء الصحراء هدراً . وسألت العقيد مكي – وكان ينزع ثيـــابه في لامبالاة اسبارطية بالبرد القارس – لماذا لا يوعز الى الجند بأن يحملوا الينا مجمرةً أو مجمرتين ، فقال ان ذلك بعينه هو ما يفعلون . وحين سألته لماذا لا يحملون النار الى داخل الغرفة قبـــل ان تخمد قال :

لانهم لو فعلوا إذن لقتلت بالغاز الخانق في خمس عشرة دقيقة.»

والتمست جواباً بالالمانية، ولكني لم اوفق. وفي الوقت نفسه كانت حزم الصفصاف قد استحالت الى مهادٍ وضاء من الفحم. وهنا ادخل الجنود النار الى الغرفة، بعد أن جُرّدت من قدرتها على الايذاء، ووضعوها على الأرض. وما هي الا فترة يسيرة حتى انتشرت الحرارة في الغرفة وعمها الدفء. فما كان مني الا ان نزعت ملابسي في سرعة قليلة الاحتشام واستسلمت للرقاد بعد دقائق قليلة.

وتشقق الفجر بصرامة منجمدة كصرامة جبلٍ من الجليد متبلور. كان انفي الذي تشوّف الى الهواء الطلق بحكم جوعه الرهيب اليه يخزني من البرد، وكانت انفاسي تتدلى مثل سحابة تنشر الظلمة على الغرفة فلا اكاد أرى منها غير مجمرة استنفدت نفسها، وتراكم رمادها اسود مقروراً فوق مهاده الفولاذي البارد. وتطلّعت عبر الغرفة التماساً للعقيد مكي، ولكن سريره كان خالياً. والواقع ان العقيد لم يكن قد استيقظ من رقاده فحسب، بل كان فراشه محزوماً ايضاً. وفي قنوط مرير اقصيت البطانيات الدافئة ولبست بنطلوني وجوربي وحذائي. وكان في الغرفة مغسلة فرنسية نموذجية: حوض من نحاس فوق قاعدة ثلاثية القوائم، ووعاء للصابون وأذرعٌ للمناشف. ولكنها لم تكن تحتوي على أكثر من غشاوة رقيقة من الجليد. ورفعت صوتي منادياً ولكنّ اياً من الجند لم يلبِّ النداء. وكنت قد لبست، الآن، قميصاً، وطوقت حنجرتي بربطة عنق غير مناسبة، وارتديت كنزتين من

الصوف وسترةً جلدية . وكانت ملابسي باردة ، وكذلك كانت يداي وقدماي . ولم اكن قد غسلت وجهي ، او حلقت ذقني . ولم أبالِ بذلك ، ولكنّ فمي لم يكن قد غُسِل ايضاً ، وهذا ما ازعجني اكثر الازعاج .

وكنت على اهبة ان اطلق صيحةً هادرةً حين وفـــدَ احد الجنود، وقدّم اليّ فنجاناً من القهوة. إنه لا يشبه تلك «الكشاتبين» التي يقدمونها اليك في المملكة العربية السعودية وليس في قعرها غير مقدار ملعقة صغيرة من قهوة معطرة ، ولا فناجين القهوة التركية الصغيرة الملأى بطين البن المسحوق المحلّى ، الشائعة في معظم بلدان الشرق الاوسط . ولكنه فنجان انكليزي كاملٌ من فناجين طعام الصباح ينبعث من جنباته الدخان ، فهو أحـــلى من الأثم وأشدّ حلكةً من الليلة التي فاتت . وجرعتُه جرعاً ، محرقاً شفتيّ ولساني ومزيلاً عدة إنشاتٍ مربعة من انسجة الجلد عن حنجرتي ، ولكنه كان اهلاً لذلك .

وفي الوقت نفسه ، كان الجندي قد ملأ الحوض النحاسيّ بالماء الحار ، ووضع قطعة من الصابون ومنشفة وموسى حلاقة استعيرت في ما يظهر من احد الضباط أو الجنود. والواقع ان حقيبتي العسكرية كانت تنطوي على موسى وشيء من الصابون ومنشفة ، وكنت على وشك ان اقدر امكانيات مضيفيّ المحدودة فأحجم عن اصطناع ما قدموه الي ، ولكني تمثلت نفسي وانا اعيد منشفتي المنجمدة الى الحقيبة العسكرية ، فتعاظمني الأمر ، واطّرحت الفكرة .

حتى اذا خرجت من « مستودع الثلج » نظيف الوجه ، حليق

اللحية ، مُفَرْشى الاسنان، كان الفطور قد أُعدّ . فقادني الجندي الى مقرّ الضابط حيث كانت نارٌ رائعة ، نارٌ نبيلة حقاً ، تتأجج في المستوقد ، وحيث اقيمت موائد طويلة لشراب الصباح . وكانوا قد افردوا لي مكاناً قرب القائد، ووُضع امامي طبق يحتوي على شرائح من لحم الضأن ، وجبن ابيض ، وزيتون ناضج ، ونصف خسة . وكان يقوم الى جانب الطبق رغيف عربي اسمر القشرة مستدير يبلغ قطره نحواً من عشرة إنشات ، وكان ما يزال ساخناً وكأنما خرج من الفرن اللحظة . واذهلني الطعام بعض الشيء ، اول الامر . ثم استغرقتُ في التهامه . وتصبب من من جبيني قليل من العرق ، فنزعت سترتي الجلدية . واتى العقيد مكي على طبقه ، وتحدث الى قائد الموقع حديثاً قصيراً . ثم قدمنا احترامنا الى الضابط وخرجنا التماساً للدفء تحت أشعة الشمس . فلم يكن الجوّ هناك قارساً شأنه في الداخل .

والطريق القائمة غربي الرطبة تقود الى الحدود الاردنية ، على مبعدة سبعة اميال تقريباً ، ثم تتصل بمحطة انابيب حيفا رقم ٣ . وكان خط الانابيب، الذي بُني خلال الايام المبكرة من الحرب العالمية الثانية ، ينقل الزيت الخام من احواض الخزن ، في كركوك ، الى حيفا ، عبر مسافة مترامية تبلغ نحواً من ستمئة وستين ميلاً . ولكن العراق أغلق الصمامات في محطة الضخّ ، في نوار ١٩٤٨ ، فانقطع تدفق الزيت على حيفا . وثمة خط آخر ينقل الزيت من كركوك الى طرابلس، عبر مسافة مماثلة تقريباً . ويفكر المسؤولون في ان يعوضوا

على الخزانة العراقية ما اصابها من خسارة ، إثر اغلاق الصمامات ، بان يضاعفوا مقـــدار النفط المنقول بواسطة خط انابيب طرابلس . وأياً مـــا كان ، فقد اقسم العرب ليحرمُنّ الاسرائيليين من نفط الشرق الاوسط وبذلك يشلون مصانع التكرير في حيفا ، التي يملكها البريطانيون ويسيطر عليها الاسرائيليون * .

وانما تقوم محطات الضخ التي تساعد على دفع الزيت الى مستودعاته الساحلية عـــلى طول خط الأنابيب ، ويفصل الواحدة منها عن الاخرى سبعون ميلاً تقريباً . والحق ان تلك المحطـــات قرى صغيرة تضم مهندسي النفط ومساعديهم وأسرهم . وفي المحطة الثالثة ، H-3 مطار كثيراً مـا كان يجتمع فيه الملك عبدالله عاهل شرقي الاردن الى ابن أخيه الامير عبد الآله الوصي على عرش العراق . وتذهب الاخبار الى ان عدة مناقشات حامية جرت هنـاك بين النسيبين الملكيين . وعلى الرغم من ان بغداد وعمان ظلتا تشكلان معاً جبهة مشتركة ، الا ان آثار التصدع في تلك الجبهـة كانت بارزة على نحو واضح جداً .

والواقع ان الوصي العراقي ، يدعمه ضباط جيشه ، كثيراً

---

* استعاضت إسرائيل عن النفط العراقي ، بادىء الامر ، بالنفط الروماني . ولكن تكرير النفط الروماني في مصافي حيفا ما لبث ان انقطع عام ١٩٤٩ . ومن ذلك الحين اخذت ناقلات الزيت البريطانية تحمل الزيت من فانزويلا الى حيفا .

ما كان يحتج على مسلك الملك عبد الله في الحرب الفلسطينية . وفيما كنت اجهل آنذاك ان كثيراً من الزعماء العرب كانوا يعتبرون الملك عبدالله مسؤولاً عن الانسحاب الاردني الغريب من ميدان القتال ، كان كل امريء في الجيش العراقي يعرف ذلك ، في ما يبدو . ولقد سمعته من كثير من رجال هذا الجيش مرةً ومرةً .

ولكن لم يكن ثمة شيء في المحطة الثالثة الآن . فقد جُرّدت محطة الضخ من آليتها ما خلا بعض الآلات المثبتة على نحو يتعذر معه نقلها . وكانت الأبنية والمنازل الخالية اشبه ما تكون باحدى مدن الاشباح في مناطق التعدين القديمة في « الغرب » الاميركي . وكان المطار لا يزال قائماً ، وكانت الريح تعبث بالجهاز المزق الذي كان يُصطنع فيه لتعيين اتجاه الرياح . ولكن الحدائق القائمة في مقدمة كل من المنازل لم يبق منها غير مجموعة فوضوية من النباتات الصغيرة الذابلة .

وحين غادرنا المحطة الثالثة اجتزنا عدداً من الكثبان غير المستوية ، كانت رمليةً اول الامر ثم انقلبت بعد ذلك صخرية بازالتية . * ولم يكن ههنا شيء . لا حياة البتة . كنا من قبل نرى بين الفينة والفينة ثعلباً ، او هرة برية ، بل وحتى ابن آوى او بضعة غزلان . اما الآن فليس ثمة شيء . لا عشب ، ولا رمل . ولكنْ هذا الدليلُ

* البازالت : ضرب من الصخور البركانية السوداء . [المعرب]

الانقلابي على جيولوجية مشوهة ، ليس غير . لقد كاد ذلك ان يكون مروّعاً .

ففي وقت ما ، لعدة آلاف من السنين خلت ، في اغلب الظن ، نسفت الطبيعة من طريق سلسلة من الانقباضات الهائلة قشرة الارض الغرانيتية في مساحات تقدر بمئات عديدة من الاميال المربعة ، مطلقةً البازالت السائل نحو الهواء وكأنما ينبع من عين جحيمية ما . وليس من ريب في ان ايما مدينة كانت قائمة هناك خليقة بان تكون قد دمرت تدميراً ، لانه ما من شيء يستطيع ان يحيا وسط طوفان من الغرانيت والبازالت الذائبين المنقضّين من السماوات المتخمة .

وهنا ذكرت ما كنت قرأته في بعض المصادر عن هجرة غريبة تدفقت موجاتها من الشمال الغربي على «سومر» حوالى سنة ٣٠٠٠ ق. م. ، وتساءلت ما اذا كان اولئك المهاجرون الذين انتهوا الى العراق وليس لهم ما يكشف عن هويتهم أو ثقافتهم هم انفسهم سكان هذه المنطقة الاقدمون الذين وفقوا الى النجاة من ثورة الطبيعة التي اضطرمت نيرانها ههنا في يوم من الايام ؟..

وطوال ستين ميلاً تقريباً تقدمنا عبر هذه الاراضي التي يطلق عليها العرب اسم « إقليم الاموات » لننتهي آخر الامر الى المحطة الرابعة (H-4) فالمحطة الخامسة (H-5) ، فالمطار البريطاني القديم في « المفرق » . وهنا اتجهنا جنوباً في محاذاة الخطوط الامامية قرب بحيرة طبريا ، لنصل بعد ساعة أو نحوها الى مقر قيادة القوات العراقية في الزرقا عند

نهر الزرقاء التاريخي الذي كان يدعى من قبلُ « يبوق » Jabbok

وفي الزرقا استُجوبت استجواباً موجزاً ، ولكن العقيد مكي شهد لي لدى القائد ، مقدماً اليه اوراقاً تتصل بي من غير ريب ، لان القائد لم يكد يطّلع عليها حتى اخذ يعاملني في ودّ غامر . ثم انه سألني ، في انكليزية ممتازة ، عن خططي ، وتطوّع لتزويدي بأسباب المواصلات وبكل ما يملكه من وسائل تيسّر لي مهمتي . بيد اني كنت راغباً ، تلك اللحظة ، في ان امضي الى عمان قبل ان يدركنا الليل .

وتقع الزرقا على ارتفاع بضع مئة قدم عن سطح البحر . وكان المطر قد اخذ في التهطال ، ليمازجه البَرَد بعد ذلك . ولم أكن ادري على وجه اليقين ما المسافة التي تفصلنا عن عمان ، ولكنْ تراءى لي أن علينا أن نقصد اليها مهما كلف الأمر . وأخيراً أنجز العقيد مكي مهامه ورجعنا الى سيارتنا ، في شيء من تصلّب الأوصال ، فتعثرنا بآلتي التصوير وبكيس ورقيّ مليء بلحم الضأن المحمّر كان بعضهم قد قدّمه الى العقيد في الرطبة . وكانت اشعة الشمس ، والحرارة المنبعثة من السيارة قد أسالت الدهن فتسرّب من خلال الكيس الورقي ورصّع أحسن سترة من سترات العقيد . فلم يكد يرى الى ذلك حتى أخذه الحنق والقى بكيس اللحم بعيداً على الطريق حيث وجدته بعض الكلاب والتهمته . وكم ندمت على أننا لم نحتفظ به لبعض اللاجئين .

وخلال المئة الميل التي اجتزناها كانت خيام اللاجئين

المرتجلة تؤلف مشهداً يتكرر في تعاقب متعاظم على طول الطريق . والحقّ ان ما وقع بصري عليه مرةً ، وحسبته لأول وهلة كتلةً من ثياب ممزقة باليـــة ، لم يكن كذلك . ولفتُ نظر العقيد مكي الى ما رأيت ، فاوقف السيارة وهبط منها هو والسائق وراحا يفحصان «الصرة». لقد كانت كل ما تبقى من امرأة عربية وطفلها . وكانت الثعالب وبنات آوى قد التهمت لحمها ولم تغادر منه غير القليل . وكذلك عثرنا على «صرر» اخرى تثير الشجون ولكننا لم نحاول الكشف عنها . ولم يكن فيها جميعاً أيما اثر من آثار الحياة . والواقع أننا ما شاهدنا خيام اللاجئين الفلسطينيين الذين آثروا ان يضربوا في الصحراء متجهين الى بغداد على ان يموتوا جوعاً في مخيمات شرقي الاردن وسورية المكتظة باللاجئين ، إلا بعد أن اجتزنا المحطـــة الرابعة (H - 4) . ولكن قلةً قليلة منهم وفقت الى ان تبلغ بغداد . وكان اولئك الذين رأيناهم الآن ، قانعين بمجرد الجـــلوس امام خيامهم والتحديق الينا . ان أحداً منهم لم يلتمس منا عطاء أو صدقة ، ولكن الجنود العراقيين ألقوا اليهم ببعض الطعام ، وبعض الملابس ، من القافلة العسكرية .

وفي الزرقا لم نجد أياً من اللاجئـــين . وكان أقرب مخيماتهم الينا ذلك الذي يقوم في المفرق . ولكني علمتُ أنني سوف ألقى آلافاً منهم في عمان . فقد أخبرني العقيد مكي أن عـدد سكان شرقي الاردن تضاعفَ بالمعنى الحرفي

للكلمة ، خلال الاسابيع القليلة التي عقبت مجزرة دير ياسين ، عندما تدفق على الحدود الاردنية ، اربعمئة الف لاجيء عربي من فلسطين . والتجأ عدد آخر من الفلسطينيين يقدّر بمئات الألوف الى الخطوط المصرية والى سورية . وهناك في الأردن حُشروا جميعاً في مختلف الامكنة التي كان في مستطاعها ان تؤويهم . فعاش بعضهم في مغاور للوحوش كان الرومان القدماء شقوها في منسرحهم الذي شيدوه في عمان ، وفي الهياكل القديمة الخاصة بالآلهة والألاهات الاغريقية الرومانية . وفي كل مكان في عمان كنت ترى البنيان قائماً على قدم وساق . ولكنّ الكثرة الكاثرة من اللاجئين كانت لا تزال من غير مأوى عندما سافرتُ الى سورية ولبنان على الاقل .

وفي تلك الاثناء كانت سيارتنا تخوّض في المستنقعات ، وكان المطر يُقلّم نوافذها المعتمة . وراحَ الضباب خلفنا على غياضٍ من الاشجار متناثرة يقطر منها الماء وتتدلى اغصانها السوداء مثقلةً بالبراعم . والى الامام كانت الطرق المزفتة تعكس وهج أضواء سيارتنا الأمامية ، على الرغم من ان بيننا وبين غروب الشمس ساعة او يزيد .

وانعطفت الطريق الى اليسار حول كثيب مرتفع . والى اليمين كانت اضواء تنعبث من منخفض قائم تحتنا . وقال العقيد مكي :

« هذه عمان . »

كانت اشبه شيء بطاسة ، فهي مدينة تحيط بها التلال باستثناء مسيلٍ ضيق يمتد في ناحيتي الشمال والجنوب يجري فيه نهرٌ ضحلٌ لا يزيـــد عرضه على عشرين قدماً . وكان يزيد هذه الصورة – مدينة في قعر طاسة – قوةً ذلك المدرج او الامفيتياتر الروماني الضخم القائم تجاه اوتيل فيلاديلفيا مباشرةً . والى يسار فناء الفندق ، المطوق بسورٍ والمحاط بعدد كبير من سيارات الجيب الملطخة بالوحل ، المدهونة باللون الابيض ، والتابعة للأمم المتحدة ، هيكلٌ صغير كان في وقت من الاوقات مكرساً لعبادة ايزيس ولكنه ينتظم اليوم عدداً غير قليل من الاسر الفلسطينية اللاجئة التي تقوم بمهام الطبخ والغسل اليومية في كثير من الهدوء ، وكأنما كان ذلك جارياً منذ الازل ، وليس ثمرةً حديثة من ثمرات البراعة البائسة .

واوتيل فيلاديلفيا – الذي يملكه آل نزّال – من المباني العصرية القليلة في عمان . لقد شُيد على أسس سليمة ولكنه ليس تحفة فنية . وهو يتألف من بنـــاء رئيسي وجناحين . وكلٌ يرجع الى عهدٍ ويرقى الى تاريخ . وانما يحتوي الجناحان احدث الأثاث وادعاه الى الرفه . وينتظم القسم المركزي من الاوتيـــل المكتبَ وصالوناً صغيراً ومشرباً اصغر . وهناك في الدور الارضي غرفٌ ترقى الى عهد ابعد ، ومطعم الفندق . ويقال ان المطعم كان جيداً في فترة من الفترات ، ولكن تدفق اللاجئين وما عقب ذلك من

ازمة في الاغذية حطم معنوية المشرفين على المطبخ ، فاذا بالمآكل التي يقدمونها الى زبائنهم خليقة بأن تُخجل الطاهي البحري ! وهكذا كنت تجد الاجنبي في عمان يشرب في بار فيلاديلفيا ، ولكنه يتناول طعامه في « نادي عمان » أو من الأغذية المعلبّة . فقد كان الطعام في « نادي عمان » هذا سائغاً مقبولاً ، وكان يمتاز بشيء نادر جداً في البلدان الاسلامية : التنوع . فالواقع أني حين خرجتُ من معسكرات الجنود في الاردن وسورية كنتُ قد أكلت مقادير وافرة من لحم الضأن والحملان حتى لقد عبقت ثيابي برائحتها وعبقتُ أنا بتلك الرائحة ، وحتى لقد أمست قطعان الغنم لا تكاد تشمّ ريحي حتى تجمد في أرضها وتحدّق اليّ ، متسائلة في ذهول : بأيّ حمل او خروف يذكّرها هذا الرجل الغريب ؟!

وهذه المرة ، كانت مشكلاتي اكثر إلحاحاً . كانت الغرف كلها مشغولة . واقتضانا البحث عن سرير آوي اليه تلك الليلة جملةً من الاسئلة وُجهت الى النزلاء الذكور غير المصحوبين بواحدة من النساء ، والمحتلين غرفاً ذوات سريرين . وأخيراً وافق رجلٌ سوري يتاجر بالآلات القاطعة على أن اقاسمه غرفته ، وبذلك حُلّت الأزمة . وأقنعت العقيد مكي والنقيب الذي رافقنا في تلك الرحلة بأن يحتسيا فنجاناً من القهوة معي ، ثم انطلقا الى القدس ونابلس عبرَ اخطر طريق من طرق الشرق الاوسط .

وكان اوتيل فيلاديلفيا ، في تلك الحقبة المرتبكة ، يذكر

المرء بـ « أوتيل سكريب » بعد تحرير باريس. كان يغص باللاجئين، والمراسلين الاوروبيين، والضباط الاميركيين التابعين للامم المتحدة، والبحارة القائمين بمهام سائقي السيارات وسعاة البريد، وبمحطة لاسلكية كاملة تابعة لهيئة الامم المتحدة، وكانت تحتل عدداً من الغرف في الدور الثالث (والأعلى). والى جانب الضباط الاميركيين كان ثمة عدد من الضباط الفرنسيين والبلجيكيين. وكانت روح الصداقة والتسامح بين هؤلاء الممثلين مفقودةً بقدر ما كانت مفقودة لدى النظارة في المدرّج الروماني القائم عبر الطريق.

وعلى أية حال فقد كانت البهجة تهيمن على المشرب، في اوتيل فيلاديلفيا. وكان ثمة فونوغراف ثقّال يهدر بضروب من الاغاني الفرنسية. ومنها تلك الاغنية المحزونة الباكية التي عنوانها « فتاة احببتها ». « Une jeune fille que j'aimais » وكانت تحيط بالمشرب بضع طاولات يحتلها عادة اثنان او ثلاثة من المندوبين العرب في عمان، واثنان أو ثلاثة من اللاجئين الفلسطينيين الذين لم يفرّوا مع عائلاتهم فقط ولكن مع أموالهم المنقولة ايضاً، وستة او سبعة من رجال الجيش الاميركيين من مختلف الرتب، ومراسل او مراسلان، وضابط من ضباط الجيش الاردني يكون بريطانياً في الأعم الاغلب، وضابط بلجيكيّ معنيّ بتقويم لغته الانكليزية وتجويدها من طريق الحديث مع الاميركيين.

واذا كانت الاحوال الجوية سيئة، في الغالب — فليس ينقطع المطر الا نادراً — فقد كان المشرب يغصّ بقصّاده من

الساعة السادسة بعد الظهر حتى الساعة الثانية او الثالثة بعد منتصف الليل ، عندما يقع رجل البار صريع الاعياء ، ويحمل الى الفراش . وعلى الجملة فقد كان المشرب موطناً هادئاً الى حد معقول . صحيح ان الكولونيل الاميركي كان يرجع احياناً الى رواق الفندق بعد ليلةٍ من السكر المبكّر وليس على جسده ما يزينه غير بنطلون قصير (شورت) متيحاً بذلك لجماعة من النسوة العربيات مولعة بالحديث الموصول لحظاتٍ قصاراً من الصمت الذاهل . ولكنّ هذا كان لا يقع إلا نادراً .

وكان الاهتياج يتخذ سبيله اكثر ما يكون الى صالونات الدور الثاني حيث كان المقامرون من جميع موانيء البحر الابيض المتوسط يربحون ويخسرون ثرواتٍ لا بأس بها كلّ ليلة . وكان القوم يلعبون البوكر ، في بعض الاحيان ، وعندئذ تحلّ بالجيش الاميركي كارثة . لأن هذه اللعبة تخطّت منذ زمن بعيد التخوم الوطنية وغربلت لاعبيها من مختلف الأمم مقصيةً عن الموائد الخضر كل خوّار ضعيف . واذا كان الصينيون قد اكتسبوا شهرةً ذائعة في البراعة والدهاء ، في المحيط الهادىء ، فليس من شك في ان اليونان وغيرهم من أبناء المشرق قد فازوا من ذلك بقصب السبق ، في الشرق الأوسط .

على هذا النحو كانت الحياة تجري في اوتيل فيلاديلفيا . ولم يكن ثمة غير لحظات قليلة توقع الملل في النفس ، حتى

خـــلال الأيام الباردة الممطرة . وكنتُ نادراً ما أفارق الفندق او أوغل في الابتعاد عنه . وعلى مسافة نصف ميل ليس غير كان مقرّ القيادة العليا للفرقة العربيـة أو الجيش الأردني ، وكنتُ قـــد شققتُ طريقي الى هناك ، في صباح اليوم الذي تـلا وصولي ، وسط حشود من العرب الملتهبين حماسةً الراغبين في التطوّع ، وحشود أخرى كان أفرادها يحاولون انجاز بعض المصالح الخاصة او تحقيق بعض الاهداف الشخصية ، وحشود غيرها أيضاً مؤلفة من فئة من التجار أقبلت لتقنـع « إدارة المشتريات » بأن تشتري بعض بضائعهم التي يحتاج اليها الجيش .

ولم يكن البناء الذي اتخذته القيادة العليا مقراً لها عـلى شيء من الفخامة . وكان مكتب المايجور جـنرال جون باغوت غلوب ، المعروف بغلوب باشا ، قائماً في الدور الثاني ، خلفَ غرفة انتظار تنتظم عدة مناضد ، وموقداً مستديراً وُضعت على قمته ركوة كبيرة من القهوة . وكان يحتلّ تلك المناضد ضباط كبار ، من مثل الكولونيل ديك بالمر والمايجور هورن ، وكلاهما مساعدٌ للباشا .

وكان في جملة الأسباب التي ترغبّني في مقابلة غلوب باشا ان « اتحاد الصحافة في اميركة الشمالية » كان قـد كلّفني أن آخذ حديثاً منه ومن الملك عبد الله أيضاً . ومن غير ما اشارة الى دوافعي الشخصية ، طلبت مقابـــلة غلوب باشا باسم « اتحاد الصحافة » المشار اليه . وهنا أيضـاً ، كانت

سمعة الصحافة الاميركية في الحضيض . فليس عجيباً أن لا استُقبل بلهفة مشرقة ، وأن لا أمنح باديء الأمر غير نظرات من الريبة القاتمة . لقد قيل لي أن عدداً من المراسلين الاميركيين حرّفوا أحاديثهم مع « الباشا » تحريفاً مشوّهاً الى حدٍ بعيد . وليس ثمة ما يحمل على الاعتقاد بأني مختلفٌ عن أسلافي من الزملاء . فما كان مني إلاّ أن شرعت في تبيان أهدافي مؤكداً رغبتي في خدمة العرب ، قائلا إن مقامي في بغداد ومرافقتي للقافلة العسكرية العراقية — وكنتُ أول مراسل أجنبيّ أجيز له ذلك — خليقان بأن يُثبتا أني لستُ من زمرة أولئك الصحافيين الضالعين مع اسرائيل .

وأخيراً نهض الكولونيل بالمر ، وصبّ لي فنجان قهوة . ثم تركني ليقابل « الباشا » . وخلال غيبته تلك دار بيني وبين المايجور هورن حديث حول معالم الآثار في شرقي الأردن . وكان المايجور هورن هذا هو ضابط المواصلات في الجيش الأردني ، ورجلاً ذا أهمية بالغة بالنسبة اليّ . فبالاضافة الى أنه مصدر السلطة الذي يتعيّن عليّ الرجوع اليه اذا ما احتجت الى ان استعير سيارةً من سيارات الجيب ، فقد كان يهيمن على سكة حديد الحجاز ، الحلقة قبل الأخيرة من حلم « برلين — بغداد » الذي راود مخيلة الحكومة الالمانية الامبراطورية . وفي عام ١٩١٧ ادت حرب العصابات التي شنها لورانس والكتائب العربية المقاتلة معه الى ايقاع اكبر الأذى بذلك الخط . وبعد ثماني

سنوات تقريباً ، دمر ذئب نجد العجوز – صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن سعود ملك المملكة العربية السعودية اليوم – هو وقواته ذلك القسم من السكة الممتد ما بين معان والمدينة تدميراً جعلها أثراً بعد عين . وهكذا ينتهي الخط الحديدي الآن ، عند « النقب الأشتر » على مبعدة خمسة وثلاثين ميلاً الى شمالي العقبة .

وبعد عشر دقائق او نحوها خرج الكولونيل بالمر من «الحرم» الداخلي وأعلن ان الباشا وافق على استقبالي . ثم إنه رافقني الى مكتب غلوب وقدمني إليه .

وجون باغوت غلوب رجلٌ بدينٌ ، قصير ، عصبي بعض الشيء ، ذو ابتسامة خاطفة ، ودعابة ساخرة . وهو ذو كفاءة نادرة ، وفهمٍ للعربية لا يقلّ ، باعتراف العرب أنفسهم ، عن فهم ابناء هذه اللغة لها . وله ابنٌ سمّاه « فارس » ، وهو اسمٌ عربي شائع ، فهو يُعرف عند العرب (الذين تذوب اسماؤهم في كثير من الاحيان في اسماء ابنائهم أو آبائهم) بأبي فارس . ومن هنا فقد يكني فارس نفسه ، ذات يوم ، بابن جهان ، او ابن جون .

وعلى الرغم من ان غلوب باشا يبدو وكأنه لا يعي ذلك ، فأنه يحمل نَدَبَةً* مشوّهة نشأت عن قذيفة انفجرت في وجهه خلال الحرب العالمية الاولى فحطمت فكّه**

* الندبة : أثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد .

** من اجل ذلك كناه العرب في شرقي الاردن بـ « أبي حنيك » .

[المعرب]

وفيما عدا ذلك فأنّ له وجهاً انيساً ضارباً الى الاحمرار ، وشارباً وخطّه الشيب ليس في ميسور المرء أن يقول انه هُذّب على نحوٍ خاص او وفق طريقة بعينها . والحقّ انه رحب بي في كياسة ، ولكن من غير ما حرارة بالغة . وباشرتُ عملي في الحال ، فقد لمست في الجو كله شعوراً لو اردتُ ترجمته الى لغة الناس لما كان غير هذا : « ليس ثمة متسعٌ من الوقت ، فعليك بالايجاز » .

سألت الباشا ما اذا كان الاردن سيوقع الهدنة ايضاً مع اسرائيل . (كانت مصر قد ألقت السلاح قبيل مغادرتي بغداد) فأجاب انه لا يدري ، ولكن يظن ذلك محتملاً.

وسألته ما اذا كان السلام سيسود ما بين العرب واليهود بعد ان يقف النشاط الحربي نهائياً .

ففكّر الباشا في ذلك اكثر من دقيقة ، وكان واضحاً من غير ريب أنه يناضل ضدّ المسارعة الى رفض الفكرة واطّراحها . واخيراً قال :

« ذلك يتوقف على اليهود وحدهم . فاذا ما سلكوا مسلكاً حسناً وجنحوا الى السكينة ، فعندئذ يكون من المحتمل ان يسود السلام . اما اذا ظلوا يسلكون مسلك الفاتحين الاوروبيين المتغطرسين فلن يكون ثمة سلمٌ على الاطلاق. »

وكانت قد نُشرت كلمة في احدى المجلات الاميركية الاسبوعية يُفهم منها ان الاسرائيليين انزلوا بالقوات الاردنية هزائم متكررة . فسألته عن ذلك . فشاع الدم في وجهه ، والتمعت عيناه الزرقاوان ببريقٍ ضبابي ، ثم قال في وضوح :

« ان القوات الاردنية لم تُكره على التراجع إنشاً واحداً أثناء الحرب الحاضرة . فعلى الرغم من انها لم تزد في يوم من الايام على ٥٠٠،٥ مقاتل فقد تعيّن عليها ان تحمي خطاً يزيد طوله على ٥٠٠ كيلو متر ، من الحدود السورية الى خليج العقبة . وليس ثمة قوة اسرائيلية ما ، استطاعت ان تُكرهنا على التراجع في أيما ظرف من الظروف . »

ثم ان الباشا اشار الى بعض المغالطات التي تنشرها الصحافة ، لا في الولايات المتحدة فحسب ، ولكن في بريطانية ايضاً . كانت كلماته موزونة ، ولكنها تقطر غيظاً ، وتصيب — وهذا شيء أهم — كبدَ الهدف . لقد عرف ، كما عرفتُ أنا ، أن هذا الحديث لن يُنشر في الولايات المتحدة . وعلى الرغم من ان « اتحاد الصحافة في اميركة الشمالية » سارع الى اذاعة تفصيلهِ برقياً فأنه لم يبلغ غير صفحات قليلة جداً .

بعد ذلك وجهتُ الى الباشا هذا السؤال :

« لماذا لا تجيز لي ان اصحب القوات الاردنية كمراقب ، وأن التقط بعض الصور الفوتوغرافية ، وأبذل غاية ما استطيع من جهد في لفت انتباه الشعب الاميركي الى بعض الحقائق لعل في هذا ما يساعده على ان يغيّر موقفه من المسألة ؟ فأنا واثق من ان بسط الحقائق للرأي العام الاميركي بسطاً صحيحاً خليق به ان يهزّ مشاعر عددٍ كبير من الاميركيين ، فيطالبوا حكومتهم بأنصاف العرب . »

وإنه ليبدو لي عجيباً ، الآن ، أني ما أزال ، وقد بلغتُ العقد الخامس من العمر ، مثالياً . إنّ أحداً لم يلفت نظري الى ان الكذبة العاطفية اشدّ قوةً من الحقيقة المجردة ، على الرغم من أني أنتسب الى بلادٍ حدّدت الأكاذيب العاطفية سياستها طوالَ قرنٍ من الزمان ! وأياً ما كان ، فقد رفض الباشا أن يتعهد لي بشيء . لقد قال إنه محتاج الى اسبوع او اسبوعين يدرس خلالهما المسألة . وهكذا انصرفت عائداً الى الفندق قبل أن امتطي متن احدى السيارات العامة الى قيادة القوات العراقية في الزرقا .

وبلغتُ « المثلث العربي » في الوقت المناسب . كانت أشياء كثيرة تجري هناك . وكانت هزيمة القوات المصرية قد حررت الجيوش الاسرائيلية في الجنوب فهي تضغط في قوة وعنف على الحدود السورية والاردنية في موازاة الانحناءة الجنوبية الشرقية من بحيرة طبريا . ومما زاد الموقف حرجاً صعوبة الاتصال بين القوات الاردنية والقوات السورية . ولعل وجود القوات العراقية على تلك الحدود انقذ الشرق الاوسط من مجاز جديد ، كمجاز دانتزيغ ، خليقٍ بأن يجعل الحكومات العربية مهتاجة على نحوٍ موصول . وكان واضحاً أن واضعي الخطط العسكرية الاسرائيليين رغبوا في ان يدقوا إسفيناً يعتنق محطة روتنبرغ لتوليد الكهرباء من مساقط المياه ، كما يعتنق امتداد نهر الاردن جنوبي بحيرة طبريا . ولو نجحوا في انفاذ خطتهم اذن لحرموا شرقي

الاردن من التيار الكهربائي ، ولأمسى نهر الاردن ـ الحيويّ بالنسبة الى الحياة الزراعية في شرقي الاردن ـ تحت رحمة المهندسين الاسرائيليين القادرين على ان يصـــدّوا النهر عن سبيله ساعة يشاءون .

لقد كان ثمة من غير ريب وقفُ إطلاقٍ للنـــار يعدل هدنةً كاملة ، ولكنّ الاسرائيليين لم يكفّوا يوماً عن خرق أحكام الهدنة منذ حزيران من السنة الماضية . فلا عجب اذا ما عكروا صفو الهدوء الحـــاضر أيضاً ، ابتغاء الكسب والتوسع . وكان غلوب باشا قد علّق على سلسلة الهجمات والغارات الخالية التي هدفوا من ورائها الى تحقيق تلك الغاية بسخريته اللاذعة فقال :

« إن عهد الشرف الاسرائيلي ليس له غَوْر ! »